سيرة رسول الله ﷺ

(لابن إسحاق / ابن هشام)

الفترة المكية

تحليل نقدى للنص

بقلم

د . محمود على مراد

●

دار الهلال

الغلاف للفنان

محمد ابو طالب

إهـــــداء..

إلى أرواح الأعزاء الثلاثة :

الطبيب الدكتور زكى على (المهاجر فى سويسرا)

سليمان على السيد ــ الإسكندرية

أحمد طه على حسن (المهاجر فى كندا)

الذين اختارهم الله إلى جواره ، الواحد بعد الآخر، عام ١٩٩٩م.

تصدير

هذا الكتاب هو - مع تعديلات طفيفة - ترجمة لرسالة علمية نُوقشت فى جامعة السوربون الجديدة بباريس فى ٢٩ سبتمبر ١٩٩٧ ، لنيل درجة الدكتوراه فى التاريخ.

وقد استُقيت مادة السيرة هنا مباشرة من سيرة ابن إسحاق ولم تنقل من الترجمة الفرنسية الواردة بالرسالة.

تمهيـــد

كان المفـروض، بداية، أن يتناول بحثى هـذا ما كتب بأقـلام الكتّاب العرب المعاصـرين عن سيرة رسول الله محمـد ﷺ، غير أنى لاحظت، منذ المراحل الأولى فى بحثى، عددا من السمات التى بدت لى غريبة فى عشرات كتب السيرة التى رجعت إليها، وبخاصة:

أ) قلة مادة حديث الفـترة المكية إذا ما قورنت بحديث الـفترة المدنية، رغم أن الفترة الأولى كانت أطول أمدا من الفترة الثانية، وأن ما نزل من القرآن الكريم فى مكة، من حيث الكم، أضخم بكثير (حوالى الثلثين أو الثلاثة أرباع) مما نزل منه فى المدينة.

ب) كون الـرسول ﷺ يُقدَّم لـلقارىء، فى الفـترة المكيـة، أكثـر ما يُقدَّم، على أنه رجل محمى أو ينشد الحماية، على الرغم من أنه كان، ولابد، بفضل الهيبة التى أضفاها عليه القرآن، ذا هامة تعلو كثيرا هامات جميع رؤساء مكة والجزيرة العربية.

جـ) ضـآلة الحيِّـز المخصص، سـواء فى الفـترة المكيـة أو فى الفـترة المدنية، لحالات اعتناق الإسلام والاضـطهاد، على الرغم من كون هاتين الظاهرتين تشكلان ركنا أساسيا لسيرة كل نبى.

د) عدم وجـود أية بيـانات، فى الفتـرة المكية، عـن انتشـار الإسلام خارج حـدود مكة والمدينة، علمـا بأن مكة، باعـتبارها عـاصمة دينـية وتجارية لشـبه الجزيرة العـربية كلها، كـانت، كل عام، ملتقى عـشرات الآلاف من الحجـاج، وأن دعوة محمد ﷺ لابـد أن تكون قد أدت إلى هداية بعضهم إلى الإسلام.

هـ) حديث الجزء الأكبر من الفترة المدنية ينصرف إلى غزوات النبى ﷺ، على الرغم من أن القتال لم يكن، ولاشك، يمثل إلا واحدة من المسائل التى كانت تشغل الرسول، وأن فقرات القرآن الكريم التى انصبّت على القتال لا تشكل إلا جانبا صغيرا من القرآن الذى نزل فى الفترة المذكورة.

وقد أقنعنى ما لمسته من تشابه بين كتب السيرة المختلفة بشأن هذه السمات أن مؤلفيها استمدوا معلوماتهم من ذات المصادر المخصصة للسيرة. ولم يقتض بى الأمر جهدا كبيرا لأكتشف أن أولى مصادرهم هى السيرة القديمة التى تحمل اسم ابن هشام، الذى راجعها واختصرها، والتى كان مؤلفها هو ابن إسحاق.

وبعد أن قمتُ بفحص هذه السيرة وجدتُ أنها بالفعل هى الأصل فى معظم السمات التى استوقفتنى فيما أُلف فى العصر الحديث من كتب السيرة النبوية.

ولكى أقف على ردود المؤلفين الذين توقعت أن يكونوا قد درسوا هذه السيرة على ملحوظاتى وأية ملحوظات أخرى تكون قد عنّت لهم بصددها بحثت عن دراسات نقدية لهذا العمل فى المكتبة العربية، وكان يخيل إلىَّ أن عملا بهذه الأهمية كتبت عنه، بلاشك، خلال القرون الاثنى عشر التى انقضت منذ ظهوره، دراسات لا تحصى من هذا النوع، وكم كانت دهشتى حين أُلْفَيت أن كتابا نقديا واحدا لم يكتب بالعربية عن هذه السيرة، وأن كل ما هو موجود من نقد بشأنها هى ملحوظات سريعة فى جمل أو فقرات قليلة فى مقدمات طبعات كتب السيرة أو فى دراسات نادرة تناولت مصادر سيرة الرسول ﷺ.

وقد وجه النقد إلى ابن إسحاق فى بعض الجوانب من سيرته، فأُخذ عليه مثلا كونه لا يوثق بعض الأشعار التى يوردها أو أنه يصنع الشعر ويضعه فى كتابه، وأنه لا يذكرْ سلسلة الإسناد فى بعض رواياته، مكتفيا بأن يقول: «فيما بلغنى» أو «كما ذُكِرَ لى» أو «فيما يزعمون» أو «حَدَّثنى من لا أتّهم»، وأنه لم يكن يمارس، بالنسبة لبعض المعلومات التى يوردها، حدا أدنى من نقد المصادر التى اعتمد عليها، وأنه كان لا يتحرَّج من قبول معلومات خاطئة أو غير واقعية هى أقرب إلى الخيال الأدبى منها إلى التاريخ. ولاحظ البعض أيضا تحامله على بنى أمية. وقد أبديت هذه الملحوظات معظم الوقت فى عبارات عامة لا تستند إلى أمثلة. ولم تكن نزاهته وحسن نيته أبدا موضع شك. ولئن قيل إن الإمام مالك، أحد أئمة المذاهب الأربعة المعتمدة فى الإسلام، وغيره من العلماء، لم يثقوا فى روايته، واتهموه بالدَّجَل، فهناك دائما من يبادر إلى تبرئة ساحته باستخدام الحُجج التى ساقها الخطيب البغدادى، وابن سيِّد الناس، وفندوا بها، الواحد تلو الآخر، المطاعن التى وجهت إليه، والتذكير بأن علماء كالزُّهْرى كانوا يولونه ثقتهم الكاملة، وأن أئمة المُحَدِّثين كالبخارى وأبو داود والترمذى والنَّسائى وابن ماجه شهدوا له واستشهدوا به فى مصنفاتهم فى بعض مسائل الحديث.

وهناك اتفاق بين الجميع على أن له القِدْح المُعَلَّى فيما يتعلق بمغازى الرسول ﷺ، وأنه كان حجة فى هذا الباب، والمصدر الذى اغترف منه كل من تحدَّث عن غزوات الرسول فى عصره أو بعد عصره، خلا الواقدى (١٣٠ - ٢٠٧ هـ / ٧٤٧ - ٨٢٣م) مؤلف تاريخ المغازى، وكاتبه ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ - ٨٤٥ م) صاحب كتاب «الطبقات»، وهو قاموس لتراجم الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين.

وفيما عدا هذه التحفظات القليلة، كان ابن إسحاق موضعا لثناء جم، بل فى إمكانى القول إنه ما من كتاب ظفر فى العالم العربى والإسلامى بالنجاح مثلما ظفرت به سيرته للنبى ﷺ منذ ظهورها فى منتصف القرن الثانى الهجرى. وما من كتاب ككتاب ابن إسحاق ذاك كان موضع التعليق والشرح والتبسيط والاختصار، وما من كتاب ككتابه نظم شعرا وتوفَّر الناس على قراءته ورجعوا إليه وأُعيد طبعه مرات ومرات. فهو يعد تراثا عربيا اشتهر خلال القرون الاثنى عشر التى انقضت منذ ظهوره.

وخلال كل هذه القرون الاثنى عشر كان الناس ينظرون إلى الرسول ﷺ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، إن جاز لى هذا التشبيه، بنظارة إحدى عدستيها القرآن الكريم والأخرى سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام.

لكن حدث عام ١٩٤٨ أن مؤلفا - هو الأستاذ محمد عزة دَرْوَزة - لاحظ أن «العدسة» غير القرآنية تشوه صورة الرسول، وأن هناك بونا شاسعا بين هذه العدسة والعدسة القرآنية. وقد ألف دروزة كتابا أشبه بالسيرة النبوية اعتمد فى الجانب الأكبر منه على القرآن الكريم. لكنه، هو الآخر، لم ينقد سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام نقدا متعمقا، واكتفى بأن ذكر فى مقدمة كتابه «أن الروايات والآثار المتعلقة بالسيرة ظلت تحتفظ بها الصدور وتتناقلها الأفواه مدى غير قصير ربما زاد على القرن من بعد وفاة النبى ﷺ، وأنه من المعقول الذى يؤيده الواقع أن يكون قد طرأ على كثير منها زيادة ونقص وتبديل وتغيير، كما أن منها ما يمكن أن يكون قد لُفّق تلفيقا ونُحِل نَحْلا، وأن منها ما يتناقض مع النصوص والقرائن والملهمات القرآنية»، وقال إن ذلك كله يدعو إلى الشك فى صحتها ومصداقيتها.

كما لاحظ دروزة أيضا أن سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد الكبرى، وهما أقدم ما وصل إلينا من كتب السيرة، ربما كانا أوثق ما فى أيدى الباحثين وأكثره دقة واحتياطا، وأنهم مع ذلك يستطيعون أن يروا فى كل فصل من فصولهما دليلا يؤيد ما يقوله بشكل من الأشكال.

ويضيف دروزة عن ابن هشام خاصة أنه «استشهد على كثير مما نقله من حوادث، أو دَوَّنَه من وقائع، أو أورده من روايات، بالآيات القرآنية، يوردها كسبب للنزول، ويشرح الحوادث . . غير أن تلك الآيات لم تكن كل شواهده فيما نقل وروى ودوَّن، كما أن فى بعض المواقف التى يستشهد فيها بآيات القرآن ما يوحى بأنه كان يقصد التوفيق، وفى بعضها ما يسمح بالتوقف فى أخذ تلك الآيات دليلا على الحادثة أو الرواية وشاهدا صحيحا عليها».(*)

هذا هو الوضع فيما يتعلق بنقد سيرة ابن هشام باللغة العربية، فى الوقت الحاضر. فكيف يمكن تفسير هذا القصور؟.

إن الأساتذة المحققين الثلاثة: مصطفى السقا، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وإبراهيم الإبيارى، مدير إدارة إحياء التراث القديم، وعبدالحفيظ شلبى، مدير المكتبات الفرعية بدار الكتب المصرية، الذين قاموا على نشر ما نعتبرها أفضل طبعة محققة لكتاب ابن إسحاق صدرت حتى الآن، يفسرون هذا القصور بأن النظر إلى «السيرة»، شأنها فى ذلك شأن تراث السالفين كله، لاسيما ما يتصل منه بعلم السير وغزوات الرسول ﷺ، نظرة فيها الكثير من التقديس، هو الذى حال دون نقدها.

(*) الأرجح أن دروزة يعنى هنا ابن إسحاق كاتب سيرة ابن هشام التى أشار إليها فى الفقرة السابقة.

ويلاحظ هؤلاء الأساتذة المحققون أن هذا ليس معناه أن كُتّاب «السيرة» المحدثين يقبلون كل ما يجدونه فى كتب التراث على علاته، لكنهم يفضلون أن يستبعدوا المعلومات التى لا يؤمنون بصحتها، دون أن يأتوا على مواضع الضعف منها، ولا يقفون إلا عند ما يبدو لهم صحيحا.

ورأى آخر يقول إن فى الإمكان تفسير هذه الظاهرة بالمحبة والتوقير اللذين يكنهما المسلمون لنبيهم واللذين يجعلانهم على استعداد لتقبل ما يتعلق به ﷺ من معلومات ما دامت لا تنطوى على إساءة إليه.

ويمكن إضافة تعليل ثالث إلى هذين التعليلين هو خشية المسلمين من أن يترتب على الإسراف فى نقد «السيرة»، فى أجزائها الأساسية، هدم لتاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ بدايات الإسلام.

أما فى الغرب فقد خضعت كتب السيرة القديمة، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر لنقد المستشرقين وأبرز بعضهم فيها سمات عديدة، لا سيما: تأثرها بالتراث اليهودى والمسيحى، وأن كتب السيرة لا تصور، فى الروايات المتعلقة بإسلام الرعيل الأول من المسلمين، ما حدث بالفعل، وإنما تصور استباقا لوضع متأخر بكثير للعناصر الواردة فى السير، وأن تاريخ بدايات الإسلام قد عدّل وأضفى عليه طابع مثالى تمجيدا لأسر وشخصيات لعبت أدوارا مهمة فى تاريخ الإمبراطورية العربية، وأن «السيرة» ما هى إلا مجموعة من «الأحاديث» تسرد حكايات لا تختلف طريقة تكوينها، فى كثير، عن طريقة تكوين «الأحاديث» النبوية التى تقرر أحكاما فقهية لا ينطوى النص فيها على سرد تاريخى بقدر ما ينطوى على صياغة فقهية أو مسألة جدلية، وأن كل ما يروى فيها عن ظروف الحال والواقع وكل تفصيل يقال إنه تاريخى

إنما هو تفسير ذاتى لهذه الآية القرآنية أو تلك لُفِّق تلفيقا بقصد إعلاء قدر الرسول أو للتدليل على صحة مقولة دينية أو سياسية معينة، وأن إجلال المسلمين لنبيهم أدى إلى نشوء أسطورة ذات طابع «هاجيوغرافى» (أى ما يكتب عن القديسين لإبرازهم فى أجمل صورة)، نجد فيها بعض الذكريات التاريخية المشوهة إلى حد كبير أو صغير، إلى جانب بعض الأحداث العرضية المنقولة عن التراث الدينى اليهودى والمسيحى، وأن علم التفسير فى مدارس المحدّثين بالمدينة كان يحلو له،لدى وصف تاريخ الفترة المكية، أن يكتشف فى بعض فقرات القرآن إشارات إلى أحداث محددة وقعت فى حياة الرسول. على أن هناك إقرارا لدى المستشرقين بأن مشكلة النقد التاريخى للسيرة لم تُحَل بصورة نهائية وأنها لا تزال بعيدة عن الحل حتى الآن.

اعتبارات عامة إذن عن سيرة ابن إسحاق/ابن هشام وعن غيرها، لكن ما من كتاب أفرد لها بالكامل سوى كتاب ج فوك J.Fuck الذى صدر فى فرانكفورت/ مين عام ١٩٢٥(*).

ما العمل أمام مثل هذا الموقف؟ هل أستمر فى الاهتمام بكتب السيرة النبوية التى ظهرت فى العصر الحديث دون توضيح مشكلة النقاط الخمس الأساسية التى صادفتنى، أم أتغلب على الحواجز الفكرية وأغامر بولوج هذه الأرض المجهولة، أى - بعبارة أخرى - آخذ على عاتقى مهمة القيام بتحليل نقدى متعمق للسيرة موضوع هذا البحث؟

ترددت طويلا قبل الإقدام على هذه المخاطرة، وكان التحدى مخيفا، لكننى وجدت من شجعنى على قبوله، وقد قبلته!

(*) هذا الكتاب. الذى أتيح لى أن أحصل على نسخة منه بعد تقديم الرسالة، هو فى الواقع دراسة مكتوبة بخط اليد تقع فى ٤٦ صفحة عن محمد بن إسحاق، وليس فيه تحليل نقدى للسيرة التى كتبها.

وقد اعتمدت فى بحثى هذا على الطبعة الثانية لسيرة رسول الله ﷺ بعنوان **«السيرة النبوية لابن هشام»** الصادرة عن دار مصطفى البابى الحلبى للنشر عام ١٩٥٥م فى قسمين: القسم الأول يشمل الجزءين الأول والثانى، والقسم الثانى يضم الجزءين الثالث والرابع، والتى قام بتحقيقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها الأساتذة:

مصطفى السقّا، وابراهيم الإبيارى، وعبدالحفيظ شلبى.

وسيرة ابن هشام تُرجمت إلى الألمانية والإنجليزية، لكنها لم تترجم بعد إلى الفرنسية. وقد ترجمت فى هذا البحث، مع الاختصار، تحت عنوان «النص»، أجزاءها التى تناولتها بالتحليل والتعليق.

وفيما يتعلق بالاستشهادات القرآنية اخترت لعملى ترجمة «ريجى بلاشير» الصادرة عام ١٩٨٠ عن دار ج.ب ميزونيف ولاروز للنشر بباريس.

وعلى الرغم من أن هذه الترجمة ليست أحدث ترجمات القرآن، إلا أنه كان فيها بالنسبة لى ميزة هى أنها تمت فى إطار دراسة متعمقة للقرآن الكريم أسفرت عن تأليف كتاب قيم بعنوان «مقدمة القرآن»، وترتيب لآيات القرآن حسب أوقات نزولها. وأفادتنى أيضا فى عملى ملحوظات الأستاذ بلاشير الواردة فى الفصل الأول من كتابه «مشكلة محمد»، وعنوانه: «المصادر والمواد التكميلية: المشكلة الزمنية».

وقد ذكرت فى الببليوغرافيا المرفقة بيانات عن بعض المصنفات العربية التى تعالج مصادر السيرة، وبعض كتب السيرة التى وردت فى مقدماتها آراء عن مشكلة المصادر.

وأخيرا فإن الإشارة إلى مواد «دائرة المعارف الإسلامية» فى الببليوغرافيا تعطى بدورها فكرة عن حالة البحوث الراهنة فى السيرة النبوية والموضوعات والشخصيات الرئيسية التى تناولها هذا العمل.

المقدمة

أولاً

إحدى الطرق الممكنة لتحليل سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام تحليلا نقديا هى فحص كل ما ورد فى هذه السيرة لمعرفة ما إذا كانت سلسلة الرواه التى ذكرت فيها سليمة، وما إذا كانت الأحاديث الصحيحة أو غيرها من المصادر تؤكد ما أورده ابن إسحاق/ فى سيرته من أخبار وموضوعات ، ولكن هذا لم يكن النهج الذى اخترته. ذلك أن قراءاتى الأولى للسيرة أقنعتنى بأنه من المناسب أن يعلو بحثى هذا درجة وأن أحاول معرفة ما إذا كانت هذه السيرة ترجمة حقيقية للرسول صلى الله عليه وسلم، وما إذا كانت تصور التاريخ الحقيقى لشخصه وعمله.

ومن جهة أخرى فإننى، بعد أن كان فى نيتى، فى البداية، دراسة هذه السيرة بأكملها، وجدت، كلما قطعت شوطا فى بحثى هذا، أن مثل هذا المشروع ضخم للغاية وأن من الصواب أن يقتصر بحثى على دراسة الفترة المكية.

وقد استخدمت فى عملى وثيقة، كما استخدمت معلومات عن المؤلف والمصادر التى كانت متاحة له وعن الإطار التاريخى الذى أعدَّ فيه كتابه.

والوثيقة التى استخدمتها هى القرآن الكريم. إنه الوثيقة الوحيدة التى رجع إليها المؤلف. وعلى الرغم من أن الآيات التى تضمنت إشارة إلى أحداث معينة قليلة فى هذا الكتاب، إلا أنه يوفر للباحث ميزتين: كونه معاصرا للرسول عليه الصلاة والسلام، وكونه يشكل أساس رسالته.

وقد خيل إليَّ حين نظرتُ إلى مجموع السور التى أنزلت خلال فترات معينة، أن فيها عناصر تسمح بالتحقق من صحة بعض ما ورد فى نص ابن إسحاق من مواد.

والمعلومات التى انتهت إلينا عن ابن إسحاق جد قليلة. لقد ولد فى المدينة فى حوالى سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م)، وتوفى فى بغداد بين سنتى ١٥٠ و ١٥٣ هـ (٧٦٧م و ٧٧٠م). وقد أسر خالد بن الوليد جَدَّه سنة ١٢ هـ (٦٣٤م) فى عين التمر وهى بلدة عراقية صغيرة كان ملك الفرس حبسه فيها. وأرسله خالد مع غيره من الأسرى إلى المدينة وبيع فيها كرقيق إلى قَيْس بن مَخْرمة بن المطَّلب بن عبد مناف. وأعتقه سيده حين أسلم. وأنجب ابنه إسحاق (والد محمد صاحب السيرة) فى حوالى عام ٥٠ هـ (٦٧٠م)، من أم كانت هى الأخرى جارية أعتقت. وكان إسحاق وأخوه موسى مُحدّثين معروفين.

وصاحب مؤلفنا ابن إسحاق الجيل الثانى من مُحَدِّثى المدينة، لاسيما الزُّهْرى، وعاصم بن عمر بن قَتَادة، وعبدالله بن أبى بكر. ورحل ابن إسحاق فى سن الثلاثين إلى مصر وتردد فيها على مُحدِّثى هذا البلد، ثم عاد مرة أخرى إلى المدينة فى تاريخ غير معروف ورحل بعدها إلى العراق. وفى العراق أقام فى الكوفة والجزيرة على نهر دجلة، وفى الرَّى، والحيرة ، وبغداد.

وقد كلفه الخليفة المنصور بتأليف كتاب عن تاريخ العالم منذ آدم لابنه المهدى. وحين قَدَّم ابن إسحاق كتابه إلى الخليفة وجده مطولا فطلب منه أن يختصره. وقام ابن إسحاق باختصار الكتاب وقدمه إلى الخليفة فأضافه إلى مكتبته.

وقد توفى مؤلفنا ودفن فى بغداد.

وكان ابن إسحـاق مُحَدِّثًا ومُؤَرِّخا اختـلفت حوله الآراء. ويروى عن الزُّهْرى أنه قال: إن العلم باق فى المدينة ما بقى فـيها ابن إسحاق، وقد استقى منه أخـبار غزوات النبى صلى الله عليه وسلم. أمـا الإمام مالك فكان لا يحسن الظن بابن إسحاق واتهمه بالتشيع.

وقد عـلق ابن هشام المـتوفى سنـة ٢١٨هـ (٨٣٣م) على سيـرة ابن إسحاق واختصرها ونقد بعض ما ورد فيها.

ماذا كانت المصادر التـى رجع إليها ابن إسحاق فى كتابة سـيرته غير القرآن؟

تنحصر هذه المصادر فى ثلاثة أنواع:

- الأحاديث النبوية بشأن أمور قالـها الرسول عليه الصلاة والسلام أو فعلها أو أقرها.

- أشعار.

- الأخبار المتداولة فى عصره.

أ) وفيما يتعلق بالأحاديث قال البـخارى، المحدث الكبير (المتوفى عام ٨٧٠م) إنه وجـد ٦٠٠,٠٠٠ حديث، منهـا ٤٠٠٠ لا أكثـر بدت له صحيحة. وقال آخر من كـبار المحدِّثين هو أبو داود (المتوفى عام ٨٨٨م) أنه وجد ٥٠٠,٠٠٠ حـديث لم يصـدّق منها سـوى ٤٨٠٠ حديث. وبلغ من كثرة الأحـاديث الموضوعة أن الأحاديث الصحيـحة كانت تبدو بينها كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود على قول الدارقُطْنَى.

لماذا كثر الوضع فى الحديث؟

أُرجعت هذه الظاهرة إلى أسـباب عديدة، منها : الخلافات السـياسية والفقهية، والتـقرب للخلفاء، والعصبية للجنس والقـبيلة واللغة والبلد،

ورغبة الرواة والقصاص ومن تولوا مهمة الوعظ فى استمالة وجه العوام إليهم بتقديم حكايات عجيبة... إلخ. وكان كل فريق يحاول بوضع الأحاديث أن يجعل الرسول ﷺ إلى جانبه. كذلك قام أعداء الإسلام بوضع الأحاديث للإساءة إلى هذا الدين.

وقد اختفى كثير من الأحاديث الموضوعة منذ أن نشرت فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة كتب السنة المحتوية على الأحاديث التى صحّت عند كبار المحدثين، لكن عددا من الأحاديث الموضوعة لا يزال باقيا. ومن أمثلة الوضع فيما يتعلق بمسألة الخلافة، ما يلى:

- أن النبى ﷺ، أثناء رجوعه من حجة الوداع، أمسك يد علىّ رضى الله عنه ووقف به أمام جميع صحابته وقال: «هذا وصيى وأخى والخليفة من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا».

- «إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه».

- «الأمناء ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية».

- «أنت منى يا معاوية وأنا منك».

- «العباس وصيى ووارثى».

- «إذا كانت سنة خمس وثلاثين ومائة فهى لك ولولدك، السفاح والمنصور والمهدى».

- «ما فى الجنة شجرة إلا مكتوب على كل ورقة منها لا إلَه إلا الله محمد رسول الله، أبوبكر الصديق، عمر الفاروق، وعثمان ذو النورين».

ومن أمثلة الأحاديث الموضوعة لعصبية الجنس واللغة والبلد:

- «إن الله إذا غضب أنزل الوحى بالعربية وإذا رضى أنزل الوحى بالفارسية».

- «إن الله إذا غضب أنزل الوحى بالفارسية وإذا رضى أنزل الوحى بالعربية».

وقد أدَّى بعض هذه الأحاديث الموضوعة، التى كانت تتناقلها الألسن، إلى خلق حالة من البلبلة والاضطراب فى النفوس بلغ من خطرها أن أمر الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز (٧١٧ - ٧٢٠م) بجمع الأحاديث وتدوينها، وأرسل إلى ولاة الأمصار كلها وكبار علمائها يطلب منهم ذلك، لكن هذا المشروع لم يقيض له أن يتم إلا بعد قرن من الزمان فى خلافة الخليفة العباسى المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م)، بعد نصف قرن من وفاة ابن إسحاق. وقد أنجزت الخطوة التالية، التى تقوم على التوثق من هذه المجموعة الضخمة من الأحاديث وتقسيمها وتمييزها من حيث صحتها، فى القرنين الثالث والرابع الهجريين.

ب) لم يبذل مثل هذا الجهد للتأكد من صحة قصائد الشعر التى تنسب إلى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد رجع ابن هشام، للتحقق من صحة الأشعار التى أوردها ابن إسحاق فى كتابه، إلى أهل العلم بالشعر، دون أن يذكر أسماءهم. واكتشف هؤلاء أن بعض تلك القصائد أو أبياتا منها لم ينظمها مَنْ نسبت إليهم، لكن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الوسائل التى كانت متاحة لهم لم تكن تسمح لهم باكتشاف كل القصائد المنتحلة.

جـ) أما عشرات - أو مئات - ألوف الأخبار والحكايات التى كانت تتناقلها الأفواه عن الرسول عليه الصلاة والسلام وعن أصحابه وخصومه، وعمن لعبوا دورا فى الأحداث أو المواقف التى كان على

مؤلفنا أن يستخدمها، فإن وسائل التحقيق والنقد لم تكن تسمح على الإطلاق، بعد أكثر من قرن بعد وفاة الرسول، بفرزها وبذل أدنى قدر من المراجعة للحكم على صحتها.

.. ونظرا إلى أن اسم عمر بن الخطاب سيرد كثيرا فى هذا البحث فمما لا يخلو من طرافة أن نورد هنا قصة من القصص التى كانت تروى بشأنه فى زمن ابن إسحاق: أرسل عمر المدعو قنفذا إلى بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فضربها بالسوط. وضغطها عمر من ناحيته بين الباب والجدار، فصاحت: يا أبتاه! وجعل عمر فى عنق زوجها علىّ حبلا يقاد به، وفاطمة خلفه تصرخ، وابناه الحسن والحسين يبكيان.

والسؤال الأخير الذى أردت أن أجلو به عملى هو السؤال الآتى:

هل كانت الحقبة التى عاش فيها المؤلف ملائمة لاكتشاف الحقيقة فيما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام بصورة موضوعية؟

للإجابة عن هذا السؤال كان علىّ أن استعرض الأحداث والاتجاهات الكبرى التى سجلها تاريخ الإسلام منذ وفاة الرسول عليه الصلاة السلام فى سنة ٦٣٢م إلى وفاة المؤلف فى سنة ٧٦٩م. وفيما يلى لمحة سريعة عن هذه الأحداث والاتجاهات:

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام انقسم المسلمون بشأن اختيار خليفته. وكان العباس، عم الرسول، وعلىّ، ابن عمه وزوج ابنته، يريان أن أولى الناس بالخلافة هو شخص من قبيلته أى من بنى هاشم. واجتمع الأنصار، من جهتهم، فى سقيفة بنى ساعدة، حول سعد بن عُبادة وأرادوا أن يكون سعد هو الخليفة. وكانوا على استعداد، إن اقتضى الأمر، لاقتسام السلطة مع المهاجرين. وأخيرا وقع الاختيار على أبى بكر، بناء على اقتراح من عمر، ليكون خليفة للمسلمين.

وبعد انتخاب الخليفة بقليل أعلنت جماعات من العرب فى أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية خروجهم على الخلافة وارتدادهم عن الإسلام فسيّر الخليفة إليهم جيوشا قضت على حركاتهم. ثم سيّر أبوبكر جيوشا إلى خارج الجزيرة استمرت فتوحاتها تحت خلافة عمر (١٣- ٢٣هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤م) وعثمان (٢٣- ٣٥هـ/ ٦٤٤- ٦٥٦م).

وقد اغتيل عمر وعثمان، وكان الذى اغتال عمر عبد فارسى. أما عثمان فقد اغتيل بيد ثوار قدموا من مصر ومن عدة مدن عراقية. وبعد موت عثمان بويع علىّ خليفة (٣٥ - ٤٠ هـ/ ٦٥٦ - ٦٦١م) إلا أن نفرا من المسلمين- لا سيما معاوية بن أبى سفيان والى الشام من قِبَل عمر- والزبير، أحد أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام، اعترضوا على هذه البيعة. وذهب الزبير، الذى كان يطمع فى الخلافة، مع واحد من مؤيديه هو طلحة، إلى مكة، وانضم إليهما فيها ولاة الأمصار من قبل عثمان، الذين عزلهم علىّ، وبعض اتباعهم، ثم نقلوا مركز حركتهم التمردية إلى العراق.

وفى سنة ٦٥٧م، أى بعد أقل من ربع قرن بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت الخصومات والعداء بين المسلمين مُحْتدمة بدرجة أدت إلى نشوب معركة بين علىّ وخصومه فى جنوب العراق استمرت سبعة أيام حضرتها عائشة فى معسكر الزبير. وقتل فى هذه المعركة من الجانبين المتحاربين عشرة آلاف مسلم (وهو عدد جيش الرسول عليه الصلاة والسلام عند فتح مكة فى عام ٦٣٠م).

وبعد أن انتصر علىٌّ على طَلْحَة والزُّبَيْر سار إلى معاوية. ونشبت معركة بين الجيشين فى صِفِّين وانتصر علىٌّ فى البداية، لكن معاوية طلب التحكيم. وقبل علىّ ذلك رغم احتجاج بعض المتحاربين فى